الفلسفة الروحانية عند هنري برغسون

بقلم : طيرشي كمال*

توطئة :

إنّ حضور فلسفة هنري برغسون الروحانية جاءت كرد فعل ضد حداثة العقل الأداتي للعلم و التقنية ، و كذا استغفال الإنسان المعاصر للأبعاد الروحانية للإنسانية جرّاء تعالقه بالصيغ المادية المقيّدة بالرمزيات المسطحة التي تحجب البصيرة عن الحقيقة الروحانية .

إن الإنسان المعاصر إذا استقرأ خبايا جوانيته و أناه القابعة في باطن نفسه ، يستكنه قيم روحانية و يتبصر بحصافة شخصيته الحقيقية التي تمتاز بالحرية و التجدد و الخلق و الديمومة ، و هي المنبع الرقراق و الصافي لقيمنا الروحانية التي تشفي غليلنا القيمي الحياتي ، لذلك عبّر برغسون عن هذا النهل الفياض و المعين الذي لا ينضب ب**"الديمومة"**.

-فماهي مكانة الديمومة في فلسفة هنري برغسون الروحانية ؟ ، و لماذا ركّز برغسون على الروح في مقابل الجسد الطبيعي ؟ و ماهو المنهل الفياض للقيم الروحانية البرغسونية ؟ و كيف دحض برغسون تصورات الحداثة المرتكزة على العقل الأداتي و قيم التشيؤ ؟.

<u>أولا/ مفهوم الديمومة :</u>

إنّ لفلسفة الديمومة عند هنري برغسون منزلة مركزية مهيبة ، تمتاز بأهم خاصية هي "الدوام" بحكم تعالقيتها بالزمانية الكيفية ، و هذا ما أكده برغسون في كتابه المثير **"الطاقة الروحية "** بقوله : **((كل شعور هو استباق للمستقبل ، انظروا إلى اتجاه فكركم في أيه لحظة ، إنه يهتم بما هو موجود ، و لكنه يهتم به في سبيل ما سيكون بالدرجة الأولى))** [1] ، كما أن للشعور الجواني الكامن في بواطن روحنا منزلة مهمة تجعله يكتسي

طابعا ذاتويا ، سيكولوجيا في شعورنا الخالص ، مؤسسا و بصورة مذهلة لأنطولوجيا ذاتية روحانية ، و ذلك فقط حينما نستكنه خبايا التجربة البشرية الأولى ، التي تجبلها الصيرورة التغيّرية و الحركة الديناميكية المتطورة ، اذ يقول هنري برغسون في كتابه **"التطور الخلاق "** : **((ليس ثمة ريب في أن وجودنا الذّاتوي هو الوجود الذي نراه أكيدا إلى أكبر حد ممكن ، و الذي نعرفه على أكمل وجه ، و ذلك لأنه من الممكن أن نحكم على جميع الأشياء الأخرى التي نكوّنها لأنفسنا بأنها معان خارجية وسطحية ، و حين ندرك أنفسنا إدراكا داخليا و عميقا))** [2]، كما اثبت هنري برغسون في كتابه **"المادة و الذاكرة "** أهمية انطولوجيا الذات ، معتبرا إيّاها ترتكز أساسا على "الأنا القديم" الذي يرتهن وجوده بالتجذر نحو ماضيه القريب أو البعيد ، حيث يسير زمانه الخاص بطريقة تراكمية تقدّمية بمنحى المستقبل ، ومن خلال هذا الطرح اقتدر برغسون أن يصل إلى نتيجة روحانية محضة مفادها أن الروح خالدة و سرمدية بحكم استقلاليتها عن البدن .[3]

كما يثبت برغسون أهمية الديمومة في فلسفته الروحانية معتقدا أنها نقلة جوهرية من حال إلى حال دون الإرتكان إلى التكرار و الرتابة الباعث على الملل ، ففي لحظة روحية ديمومية هي حقيقة الأمر ابداع تجددي و انبجاس و انبعاث خلاّق متدفق بإستمرارية ، ومع هذا التغاير المثير في صيرورة الديمومة لا نفهم منها البتة القطيعة مع الأحوال الجوانية القابعة في ملكوت أرواحنا ، بل هي سيل عرم متصل و متلازم بالإرتباط و متسلسل بلحظات الزمان الثلاث (الماضي و الحاضر و المستقبل) ، و بصورة كيفية ، و كل لحظة فيه مغايرة تماما للحظة السابقة عنها ، أو التي ستأتي في المستقبل القريب أو البعيد ، لا تعرف النهاية أبدا ، لهذا لا يمكن للواحد منّا أن يحذق الغيب و يتنبأ بالمستقبل ، لأن الحالات الروحانية لا تتكرر بل تتجدد دوما ، و متفردة كل الفرادة ، تتسم بالإتساقية ، و الروح وحدها هي صاحبة القرار الحر و الخلاق ، و تأكيدا على ذلك يقول هنري برغسون في

كتابه **"بحث في المعطيات المباشرة للشعور " : ((من الروح بكليانتها ينبجس و يفيض القرار الحر))**[4].

كما أن بلوغ ماهية الديمومة الحقانية و نشوتها و شغفها العامر، لا يدان لأحد لبلوغه اللهم إلا عن طريق (قوة النفاذ) إلى كوامن الأنا الروحاني الباطني ، و بجهد قوي وعميق ، لا يصل إليه إلا صفوة من البشر، فقد يحيا المرء و لا يبلغ أبدا الحرية الحقيقية بعمقها السحيق.

و بذلك يمكن أن نستنتج أن الديمومة خبرة حياتية نستحضر فيها واقعنا المعيش كمعطى مباشر، كما أن أهم خاصية لهذه التجربة هي الدوام ، و الميزة الأكثر فرادة في فلسفة الديمومة البرغسونية هو صيغتها الروحانية الخلاقة التي تدعمها الصيغة الحيوية و الإتيقية لتجعل منها حقيقة زمانية سيكولوجية معيشة ، ومن خلال الصيغ الثلاثة للديمومة تنبجس فلسفة جديدة عند برغسون هي فلسفة الروح .[5]

ثانيا/ ماهية الطاقة الروحانية عند هنري برغسون :

عرفنا في مبحث سالف أن الديمومة هي فلسفة امتلاء نؤكد من خلالها القيومية الأنطولوجية للزمان الروحاني المتواصل و الخلاق ، كما أنها فلسفة روحانية تبعث على الطمأنينة و الثقة ، أما في مبحثنا هذا المعنون بماهية الطاقة الروحية فنعمد إلى تكنه خبايا هذه الطاقة و دافعيتها و منبعها و أصولها ، و هذا من خلال استقراءنا لكتاب الطاقة الروحية للفيلسوف هنري برغسون ، نجده يعتقد أن تحديد ماهية الوعي يمتاز بالتحديد الضيق ، و بمثل هكذا حضور دائم أمام خبرة كل واحد منّا ، فيعمد إلى ربط الوعي بالذاكرة ، و أنّ هذه الأخيرة تكون موجودة إلا مع موجودية الوعي فيها ، بحكم أن الوعي الذي لا يحفظ شيئا من أرشيف ماضيه و الذي يتناسى ذاته بإستمرار يهترئ ثم يولد في كل لحظة ، و لنا في تعريق ليبنتز خير دليل ، اذ يقول هذا الأخير **((المادة هي روح آنية))**[6].

و يعتقد برغسون أن الوعي الروحي هو دوما استشراف على ماهية المستقبل ، فأنت دوما توجه تفكيرك في لحظة حياتية آنية نحو ما سوف يكون ، فيجرنا الزمن الروحي إلى التحرك باستمرار للتطاول على المستقبل . [7] و يبحث هنري برغسون في كتابه "الطاقة الروحية" عن طبيعة الروح ، و يسرد لنا بعض التصورات التي تحاول تحديدها ، فمثلا هناك من يقول أن الروح في الفضاء كما في الزمن تتجاوز الجسد الذي تقترن به ، فلنعالج الأمر بالنسبة إلى الفضاء ، و الروح لا تتجاوز الجسد لا في الزمان و لا في الفضاء . لكن السؤال الذي يؤرق برغسون ، هل توجد حقا روح مختلفة عن البدن ؟.

يقترح برغسون على الفيلسوف أن يهتم بدراسة حياة الروح في كل مظاهرها ، اذ يقول **((فالفيلسوف المتمرس بالمراقبة الذاتية الداخلية ، يجب عليه أن ينزل إلى داخل ذاته ، ثم يعود إلى السّطح ، متتبعا الحركة التدريجية التي يمتد بها الوعي و ينتشر و يتهيأ لكي ينمو في الفضاء))**[8].

ومن خلال هاته الممارسة يقتدر الفيلسوف على تكنه هذا التحول التدريجي و يعمد إلى تبصر التصرفات التي بها يتجلى الوعي في الخارج ، و يعقب برغسون على ذلك قائلا : **((يحصل على الأقل على الهام غامض بما يمكن أن يكون عليه ولوج النفس إلى المادة ، و ما يمكن أن تكون عليه علاقة الجسد بالروح))**[9].

و يهيب برغسون في محاضرة ألقاها في جمعية البحث النفساني في لندن بتاريخ 28 أيار 1913 ، و التي تحمل عنوان **((أشباح الأحياء و البحث النفساني))** بأبحاث الجمعية المنصبة حول وضوح الرؤية و التخاطر و استكشاف خبايا الظواهر السيكولوجية و المثابرة الكبيرة للإعلاء من شأن الدراسات الروحانية ، مؤكدا على أهمية الماضي في صيرورة طاقتنا الروحية إذ يقول :**((ذلك أن ماضينا بأكمله موجود هنا ، و باستمرار ، و أنه ليس علينا إلا أن نلتفت لكي نراه ، إلا أننا لا نستطيع و لا يجب أن نلتفت إلى**

الوراء ، و لا يجب ذلك علينا لأن مصيرنا أن نعيش ، و أن الحياة و العمل يتطلعان إلى الأمام.))[10].

و يضيف قائلا : **((إنّ الرؤية الشاملة البانورامية للماضي تعود إذن إلى تخلّ مفاجئ عن كل اهتمام بالحياة ، تخلٍّ ناشئ عن القناعة المفاجئة بأننا سنموت للتو))**[11].

ثالثا/ فلسفة الروح و علاقتها بالقيم الثلاث(الدين و الأخلاق و الجمال):

1-فلسفة الروح و علاقتها بالقيم الأخلاقية :

تعالق أفهوم الخلقي في مناحي الديمومة التي حدّثنا عنها برغسون ، فسجّل لنا حضورها الإتيقي القيمي في كتابه منبعا الأخلاق و الدين ، بحيث تكون العملية الخلقية صورة باعثة على الأخلاق ، ومن المفاهيم المركزية التي يتبلور حولها مفهوم الخلق ، كقيمة ديمومة "مفهوم الندّاء " حيث تكون الخبرة الإنيّة منبعا أصيلا للأخلاقية و منطلق فياضا للقيم الجديدة ينفتح المجتمع بفضلها ، و هنا تكون الهزّة التغييرية ، إذ يقول برغسون واصفا اياها في كتابه منبعا الأخلاق و الدين **((الهزّة ، إنما يحدثها فرد ، ومن العبث القول بأن هذه الوثبة لا نفترض من ورائها أي جهد خالق))**[12] .

كما أنه في الأخلاق يحصل الإنجذاب ، حيث ينجذب المجتمع بمنحى التجربة الباطنية لكل فرد من أفراد المجتمع ، لذلك فالوثبة من المغلق إلى المفتوح ، إنما هي وثبة نحو الأمام و لا يدان لها بالتحقق ، إلاّ إذا عزم المجتمع أن يعاني تجربة و يقتنع بها ، و هذه القفزة البرغسونية إنما هي في حقانية الأمر بحث عن مفهوم الله ، و تكوّن العملية الأخلاقية ابداعا مستمرا و يستنجد برغسون ههنا بالطاقة الروحية الصاعدة (المصدر الحقيقي للقيم الخلقية) ، و يتأكد ذلك أكثر لما يكون المسيح هو أعظم هذه الشخصيات الأخلاقية و افضل من مثّل المبدأ الأعلى للأخلاق ، ينصهر معها

الزمني بالروحاني بفضل الحدس و العاطفة الخلاقة المحايثة له سيتمكن الإنسان الصانع أن يكون فعالا في مجتمع مفتوح .

و تطرح القيم البرغسونية براديغما مهيبا يقر بمستويين ايتيقيين أولهما :

-نمط النكوص بمنحى الوراثة وفق عادات الأجداد و أعرافهم و يكون للبعد السوسيولوجي يده الطولى و التوجيه الأكبري باعتباره حافظ القيم و بؤرة صيانتها ، كما أنه يضمن تناقلية أكسيولوجية من جيل لآخر ، و هذا الأنموذج الأخلاقي يتسم بالسكونية و الرتابة و الإنغلاق (نمط متقوقع)

-و نمط يؤمن بصورة جازمة بقيم الإبداع و الإنفتاح و التجديد و ينادي بحياة ملؤها التطور و السّمو السّؤددي ، و الصيرورة الدائمة التي تخلق الحياة خلقا متجدّدا ، يقوّض معه قيم التقليد و الإنغلاق و الجمود ، و تمتاز هاته الأخلاقيات بالديناميكية و الحركية .

ومع ذلك علينا أن نعترف حقيقة بأن هنري برغسون عمد هو الآخر إلى قراءة أمهات الأعمال المحسوبة على المدرج السوسيولوجي ، و نستحضر في مخيالنا ههنا كتابات عالم الإجتماع الفرنسي ايميل دوركهايم و كذلك ليفي برويل ، لأن هذان الأخيران عمدا إلى وضع ضوابط ايتيقية سوسيولوجية صارمة تحتكم إليها النواميس السوسيولوجية و فسّروا الظاهرة الإجتماعية بمنأى عن السلوك الفردي الذاتوي ، لذلك يكون أفهوم القسر و القهر ، ملازمان للظاهرة الإجتماعية و دليلها المواضعاتي الدقيق على وجود هذا القسر ، و يستشهد عالم الإجتماع ايميل دوركهايم على حقانية القسر بإلزام و ضبط القواعد السوسيولوجية بالقواعد الإيتيقية الصرفة فمثلا شعور " اللحمة الجماعية " يكون بمثابة الحيلولة دون أن يقتدر أي تصرف فردي يسعى لمهاجمة هاته القواعد الضبطية الإجتماعية ، بحكم أن "شعور الجماعة " يعتمد على رقابة صارمة تسلط

على الأشخاص داخل المجتمع ، و يستعان لإحقاقها ببعض الزاوجر و العقوبات التي تكون السلطة الإجتماعية خرة في تصرفها .[13]

و الأدهى من ذلك يعلق ليفي برويل أن ما يشعر به الفرد منّا ، من قيم المحبة و التعاطف و المودة ، يظن ظن السَّوء بأنها متجذرة في كوامنه أو أنها تنبجس من تلقاء نفسها و بالخصوص في المجتمعات التي تشهد تطورا في المنحى الحضاري ، لكن هذه المشاعر الفردية هي في الحقيقة سليلة تراكمات عرفية تحكمها التقاليد الإجتماعية التي حفظها المجتمع منذ الأزل [14].

2-فلسفة الروح و علاقتها بالدّين :

حينما ننفتح على الدين عند هنري برغسون ، نجد بأنه يوثق الصلة بين الأخلاق و الدين ، فنداءهما واحد في الأهداف و المبتغيات ، ففي صورة المسيح تنكشف الأخلاق المفتوحة التي تفيض على الإنسانية حيا ، و كذلك الأمر بالنسبة إلى الدين ، إذ يصعب وضع حدود لهما ، إنّ الدين الذي يحثنا على أن نسلكه في حياتنا هو ذلك الذي يتعالق بالإله الأعظم ، و يتحد به فتنكشف معه حجب الإشراق ، و تضيء بفضله النفوس الممتازة ، و تجبلها افياض الحرارة و يغمرها الوجد بطيب غمراته.[15]

و لا يتأتى للإنسان أن يتعالق بالإله و ينجذب بمنحاه و تفيض عليه القيم فيضا إلا بعد أن ينأى بنفسه عن الطبيعة التي قبعته في دين سكوني ستاتيكي ، كما يجب عليه أن يتملص من العقل ، و يصعد في ملكوته نحو الإندماج بالله الذي هو الماهية الحقة للدين المتحرك الديناميكي ، و نفهم من ذلك أن الدين السكوني هو دين فيزيقي خاضع للطبيعة ، أما الدين المتحرك فهو مفارق للطبيعة .

و يعرج بنا برغسون إلى التجربة الصوفية الزهدية ، و علاقتها المتينة بالدين الديناميكي ، باعتباره دين حق ، لأنهم ينهلون عرفانهم من إله عظيم ، و

نكتشف معه قيم صوفية متفردة في بساطتها و سموّها ..، و عطفها و محبتها على الإنسانية المنفتحة ، المنجذبة إلى الدين الحركي ، إن المتصوف شخصية سامية ينجذب نحوها كل البشر ، و يسعون للنهل من قبس نوره متخطيا لحدود الزماني و المكاني ، إنها سلوك مجاهدة جوانية ، و خلق مستمر يسري في ديمومة روحانية صرفة .[16]

لهذا نجد إن الديانة المسيحية انبثق فيها التصوف في ابهى حلة ، أما برهان برغسون على وجود الإله فهو مستمد من برهان الاتحادية و الحلولية الذي يشرق في قلب المتصوف و يؤكد له حضور الإله في قلبه من دون برهان عقلي فلسفي ، إن الدين الساكن دين طقوسي شعائري ، جامد ، أما الدين الديناميكي الحركي فهو يتجدد في كل زمان معيش كروحانية محضة . و تتجسد هذا الإنفتاح المهيب للدين الحركي في الشخصيات الدينية العظيمة ، و يعتبر هنري برغسون هؤلاء المتفوقون العظماء إمتياز نادر للتفرد ، و للتوحد ، للعزلة ، لكن نداءهم من أجل حياة روحانية و متناغمة ، لانه يدعو الى الحب ، نداء يأتي من السماء ، بخلاف الارضي النيتشوي ، يعرج فيه الانسان الى الالوهية ، بعاطفة جياشية ، قوية مطلقة ، تنم عن المطلق المرادف للكمالية،إن القيم عند برغسون أخلاقية و دينية ، ليست علامات ضعف بل صورة صدوقة عن نداء البطولة ، و بذلك استطاعت قيم الاخلاق المفتوحة ، ان تحل معاناة الانسان المعاصر ، و محنته ، لتتماهى الانسانية بكليتها في عاطفة الحب و التعاطف ، دون أي إكراه ، أو ضغط أو وصايا أو زواجر أو روادع ، او أي الزام .للسلوك الفردي ، و يعتقد برغسون بصورة جلية أن الانموذج الحي ، للمحبة نتجلاه في المحبة المسيحية المتسامحة التي هي صميمها دين اخلاقي مفتوح ، و المسيح رسول للاخلاق و الدين –كما نفى برغسون أن يكون للعقل أي قيمة في معرفة الاخلاق ، لانه يقع في مطبات الزلل ، إن فكرة الدين المفتوح لا تعترف بحدود عقدية ضيقة تؤمن بها طائفة على حساب أخرى أو مذهب ديني ، او فرقة معينة.أن برغسون وثب بنا في نقلة نوعية من المنغلق الى

المنفتح ، حيث امتزجت الاخلاق بالدين ،،إنه نداء ظرفي تنجذب بمنحاه الانسانية تحت شعار الحرية تتجاوز الموقف الحداثي الذي يفصل بين الأخلاق و الدين .[17]

3-فلسفة الروح و علاقتها بالجمال :

إنّ الجمال عند هنري برغسون انتماء تدركه الذات بروحانيتها البحتة ، و لا يدان لنا بالعثور عليه في واقعنا المادي الإمبريقي ، و في كتابه **" الفكر و الواقع المتحرك "** يؤكد هنري برغسون على الطبيعة الحدسانية لإدراك الفنان ، فالفنانين كما يقول هنري برغسون **((لما ينظرون إلى شيء ، فإنهم يتبصرونه لذاته ، و ليس لذواتهم ، إذ أنهم يدركونه برؤية موجهة لأجل الفعل .، فهم يدركون من أجل الإدراك ، و لا لشيء إلا لأجل الإدراك الفني ، فهم يولدون منفصلين عن منافع الحياة ، لأن الفنان يقلل من استعمال ادراكه في الأحوال السطحية ، فإنه يدرك قدرا كبيرا من الأشياء))**[18].

و حينما نقرأ كتاب الضحك لهنري برغسون نجده يرفض عملية الضحك لأنها آلية صرفة تحد من عفوية جوانيتنا الباطنية و تجعل من الشعور الحدساني قوالب رمزية ثابتة ، و بذلك يمتاز الضحك بخصائص مناقضة للديمومة الروحانية ، فمن خصائصه أنه يمتلك خصوصية إناسية و سوسيولوجية و خطاب من العقل إلى العقل ، لذلك يتوافق الضحك مع ماهومعقول إذ يقول برغسون في كتابه الضحك **((أن السبب الذي يجعلنا مضحكين هو أن نضع ذواتنا و أرواحنا في قوالب جاهزة ، فهو يلزمنا بالصلابة عوضا أن يأخذ منا ليونتنا))**[19].

كما أن الضحك يقضي بتاتا على العواطف الجياشة العميقة ، و بذلك فإن الضحك الذي يتحدّث عنه برغسون في كتابه لم يكن ضحكا حقانيا ، و إنما هو ضحك استهزاء و استهتار.[20]

لذلك يكون الجمال الحقيقي بالمعنى البرغسوني هو حقيقة ذاتية ، نعثر فيه على عفوية الديمومة الحرة ، نسمع من خلاله أرواحنا تهتز بإستمرار اتجاه التوحد مع الطبيعة ، و نسمع في غياهب أرواحنا غناء الموسيقى ذات لحن غير منقطع لحياتنا الجوانية ، و بذلك نفهم أن الجمال الحقيقي الذي تحدّث عنه برغسون في كتابيه " المعطيات المباشرة للشعور" و "الضحك" هو حدس باطني ، و يكون الإدراك الجمالي عبارة عن ذاتوية كذلك ، و يمثل الفن حقيقة حدسانية روحانية محضة .

إن الفن الحقيقي لا تبرز عظمته كأثر مهيب ، اللهم إلاّ إذا تجلت عظمته كفكر خلاق ، و يهب القيمة المثلى للجهد الذي يعمل على خلق الآثار الفنية ، و لنا أن نعترف بأن هنري برغسون لم يقدّم نظرية استطيقية قائمة بذاتها ، لكنه أثناء انهماكه التأسيسي للميتافيزيقا أنتج بنهج غير مباشر ، مذهبا و تصورا في الإستطيقا لكي يحدد مفهوما للديمومة و الحدسانية ، فكان للجمال قيوميته في التصور البرغسوني ، كما أن برغسون لم يكن هدفه تفصيل قواعد العمل الجمالي ، إنما كان هدفه الجوهري تأسيس ميتافيزياء تعتمد الوعي الجواني المباشر ، محاولا تحديد تطابقية كليانية بين الوعي الإستطيقي ووعينا الكيفي للمفاهيم التصورية ، لهذا يكون الفن حقيقة حدسية ترتهن بتلاحمية الحدس مع الفن ، و تتجلى هذه العلاقة التلاحمية من خلال : أنه يوطد العلاقة بين الفن و الحدس في الطبيعة و حياة الفنان خلق و ابداع تجبله الديمومة ، كما يعبر الفنان عن حقيقة الحرية القابعة في ملكوت الذات و نتكنه تحقق الفعل الحر كمظهر خارجي في الأثر الفني ، فالعملية الفنية تجلي للحرية الباطنية ، و الصفة الأساسية التي يمتاز بها العمل الفني الأصيل إنما هي استحالة التوقع بها سيحصل مستقبلا .

يتلازم الفن بالخبرة الحدسانية بالمعنى الميتافيزيقي لا بالمعنى الإستيطيقي ، و يعقب الباحث ((نبيل صادق)) في كتابه علاقة الفن

بالفلسفة عند برغسون قائلا **((إنّ غرض الفن عند برغسون هو استبعاد كل ما يحجب عنا الواقع من أجل وضعنا أمام الواقع العميق نفسه ، أي رؤية مباشرة للواقع متجردة من أي منفعة أو ضرورات حياتية))**[21].

رابعا/ الفلسفة الروحانية البرغسونية و علاقتها بقيم التعاطف و الحميمية و الحرية :

إن المنحى الروحاني الذي تدثر به سياق فلسفة برغسون المهووس بقيم الديمومة المحضة ، هو في حقيقة الأمر تلاحم عميق مع التعاطف الذاتوي ، و لا يدعوا القول بالتعاطفية و الحميمية إلاّ إلى اعتبار الحدس عاطفة جياشة ، و تلك هي الركيزة الجوهرية للبرغسونية ، بحكم أنها عاطفة تلج إلى غياهب الباطن و حميميته الصميمية ، و التي تكشف عنها نظرية حدس الديمومة ، أو الأنا الروحاني الخالص ، وفق منطوق الأنا الدائم السريان المعادل للتغيرية و الصيرورة ، هذا الأنا الحميمي الديناميكي الفعال ، يتملص من كل علائق خارجية ، ليحصل على أناه المتفرد المستعد لكل المواقف التي تقتضي الحرية ، فحينما نستقرئ الخبرة الحدسانية مثلا في كتاب برغسون "منبعا الأخلاق و الدين " نجدها يضرب مثلا بمبلغ الحدس الشعوري الذي يبلغ قوته و شدّته التعاطفية عند أشخاص لترقيتهم في درجات سؤددية من الروحانية ، و تمكنهم من الذوبان في المطلق ، فالتعاطف الحقاني و الحرية المثلى نتجلاها بجلاء في تجربة الصوفي العرفاني .. فتعاطفية الصوفي وفق المنظور البرغسوني دائمة الوجد و الشوق و الحنين و الهيجان و الإنفعال ، تئز و تئن في نفسه عاطفة المحبة و الحميمية ، إنه شخص يختلف عن البشر العاديين ، إنه نموذج عن أخلاق منفتحة لا تعرف للأحقاد سبيلا ، و يدعونا برغسون إلى ضرورة أن نسلك طريقنا بإتجاه نداء الحب ، إلى حيث دين المحية و العاطفة ، و إلى مناجاة

حب الإله العظيم ، حينها تنطفئ ذات البشري في الإلهي ، و يتعانق النّاسوت باللاهوت ، و تحصل النقاوة و الطهارة .[22]

و من المفاهيم الجليلة لتلاحمية الحرية مع التعاطف الحميمي نتجلاه داخل التراتبية القيمية للفلسفة الروحانية لبرغسون في مفهوم النداء ، أو بالأحرى "نداء البطل" الذي يمفصل بين المغلق و المنفتح في الأخلاق ، و الساكن و الحركي في الدين ، إنه نداء وجيه من البطل إلى الإنسانية برمتها ، إنه الهادي إلى الطريق القويم ، هذا النداء الصيروري تتنوع به القيم ، لتجد اشراقتها في مبدأ الخالق و تتحرر حينها من الدين القسري القهري ، و تستيقظ معه الحرية و يتجاذب معها الإبداع حينها يتفوق الإنسان و يتدثر بدثار البطولة .[23]

كما أن مطلب الحرية يستوجب لزوما حضور القيم في الفلسفة الروحانية البرغسونية ، ذلك أن الحرية مدخل لزومي لفهم ديناميكية القيم ، و اكتساب الحرية يوجه واقعنا نحو القيم ، و تأكيدا على ذلك يقول الباحث زكريا ابراهيم في كتابه " مشكلة الحرية " **((إذا قلنا أن مهمة القيمة تنحصر في إقامة ضرب من التوافق أو التطابق بين الوجود كما هو ، و الوجود كما ينبغي أن يكون ، فسيكون علينا أن نقول إن الحرية هي التي تتكفل بتحقيق هذا التطابق))**[24].

و نفهم من كلامه هذا أن القيم عند برغسون تعد في أحد جوانبها تأكيدا على الحرية الإنسانية ، لأنه من دون الحرية لا تقتدر الأنا أن تتجاوز حدودها الطبيعية الضيّقة إلى عالم القيم ، و لن تستطيع الذات الروحانية أن تستكنه حقانيتها إلا في حالة امتلاكها للحرية ، و يكون لها بعدا فعالا للكشف عن القيم ، و تنجلي الحرية من معقلها في ممارسة الخبرة القيمية حيث تتجاوز الذات حدودها البيولوجية ، و يصبح لمعنى القيمة فهم حقيقي للحرية .[25]

إن الحرية وفق المنظور البرغسوني مطلب ركيز ، و لن نصبح في سؤدد الإنسانية إلا إذا سعينا للتحرر و اكتساب الحرية ، و لا وجود البتة لحرية إلا على مستوى الإنسان ، لأن الكائن الأوحد القادر على الإنعتاق من القيدية ، لأن الحيوان يفتقر إلى القدرة على التحرر.

خامسا/ دحض الروحانية البرغسونية لقيم العدمية و التشيؤ و الآلية :

اتخذ الفيلسوف هنري برغسون موقفا دحضانيا اتجاه النسقية الكانطية الأكثر تأثير في ذهنية الأزمنة الحديثة ، بحكم أن كانط اعطانا صورة قطائعية مناهضة تماما للتصور الروحاني الذي امتازت به الديمومة البرغسونية المنسجمة وفق تواصلية اتصالية تراكمية ، فصورة الإنفصال الكانطي فارقت بين الأنا النوميني و الأنا الفينوميني ، كما أن كانط يدثر المصدر الإمبريقي بسمة النسبية في حين نجد برغسون يسمها بسمة المطلقية .

كما نقض هنري برغسون الزمن بالمفهوم الكانطي ، لأن هذين الفيلسوفين يلتقيان في فكرتي الزمان و المكان ، بحكم أنهما نقطة انطلاقهما و كلاهما عمد إلى التفكير في مفاهيم عصره العلمية ، كونت له نظرة ذات تفردية بمنحى تناوله لطبيعة المعرفة و مشروعية الميتافيزياء ، و في جوهر هاته الأخيرة نتلمس قضية جوهرية مرتبطة مباشرة بمفهوم الزمان ألا وهي قضية الحرية و منها تنبجس مفاهيم الأخلاق و الدين .[26]

و بذلك يكون انهمامهما بالزمانية مدخلا صريحا للميتافيزيقا عند كليهما ، و بالتالي سيسعيان بجهد ايمانهما أن يجدا حلا لمشكل الحرية بحكم أن هذه الأخيرة تعد مبدأ أولانيا في كل ممارسة أكسيولوجية و يمتاز الزمن الكانطي كمفهوم خالص و لزومي لكل المفاهيم الحدسانية الإمبريقية و سياق فارغا منسقا لها ، و نفهمه كإطار قبلي أو بالاحرى كشكول قبلية

مارقة عن المادة الملموسة ، و يبقى صورة جوفاء ضرورية لكل معرفة منظمة ، و يكون التتالي التراتبي الماثل للحوادث في صورته المنفصلة عنه .[27]

و بذلك يفصل كانط بين الزمن كإطار اجوف يؤدي مفهوما موحدا ، و بين الديمومة كمحصلة تجريبية من محتوى الوقائع و من ثمة فهي نسبية .كما دحض برغسون النظرية النقدية عندما اكتشف حقانية العقل ، فبوساطة هذا العقل سعى كانط إلى تقديم معرفة موزعة عبر زمان و مكان فمعرفته مستحيلة في عالم الظواهر ، ليترك كانط الضرورة هي المسيطرة على الواقع و تنتفي الحرية و يزول تصور المطلق بما أن المعرفة نسبية في مضمار الحرية .

كما فند برغسون فكرة الواجب لذات الواجب الأخلاقية الكانطية معتبرا اياها سليلة الأخلاق المغلقة التي تصنع مجتمعا مغلقا ، كما فند برغسون الوضعية التجريبية بحكم أنه أراد أن يعيد أمجاد الشرعية الميتافيزيقية التي فندتها الوضعانية ، و حول نقد المعرفة العلمية الإبستيمية التي اعتبرتها الوضعانية شرعية و كافية بذاتها لكل مشروع بناء.

كما قوض برغسون تفسيرات التطورية الآلية و الغائية معتبرا أنه سواء عمد هؤلاء إلى تفسير الحياة بالعلية الميكانيكية أو الغائية فإنهم في حقانية الأمر لم يفعلو شيئا سوى أنهم اتبعوا أوهام العقل ، و ذلك حسب العادات الآلية التي تدرب عليها العقل في الحياة دون فهم حقيقي لطبيعتها.[28]

بالإضافة إلى كل ذلك ابطل هنري برغسون المواقف الآلية الترابطية الفلسفية و العلمية في مجال علم النفس الفيزيقي و ذلك كتمهيد لتوكيد قضية مهمة تتمثل في أن العواطف الجوانية كالإحساسات الجمالية و الإرادة ، هي موطن للكيف و ليس للكم.

خاتمة :

تعتبر الفلسفة الروحانية الحيوية التي تزعمها الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون من بين الفلسفات التي اقتدرت على القطيعة و الانفصالية عن الفكر السائد في الفلسفة الاوروبية الحديثة ، خصوصا و ان هذا النسق الفلسفي نبذ وراءه كل نزوع ميكانيكي أو مثالي ، و نهج سبيله بغية تفسير الوقائعيات تفسيرا حياتيا ، مؤمنا ايمانا قطعيا بالحركية و الصيرورة ، و مصورا الواقع تصويرا عضويا ، سائرا على وفاق مع البيولوجيا ، و نائيا بنفسه عن النمط العقلاني في تصوراته و احكامه القبلية ، الصورية و كذا المنطقية ، معتبرا الحدس و الديمومة و النشاطية الحركية و الفهم الحيوي الوثبوي دأبه و ديدنه في تتبع صيرورة التاريخ ، كما أن فلسفته ترانسندانتالية تشيد بالحقيقة الموضوعية المفارقة للذات العارفة ، دون أن تتنكر للمذهب التعددي و الشخصاني .و يمكن ان نجمل نزوعه الفلسفي في جوهره على أنه ردة فعل قوية ضد التيار الميكانيكي عموما ، و اذا كان برغسون من اهم ممثلي هذه الفلسفة الحياتية الجديدة و اكثرهم اصالة فحري بنا أن نتقصى في فلسفات هذا الاخير نزعته الروحانية المتجذرة من المدرسات الفلسفية الفرنسية الروحانية و الشخصانية بدءا بالفيلسوف –مين دوبيران- و رافيسون و لاشلييه ، و اميل بوترو.مرورا بالنزعات التطورية و البراغماتية الانجليزية ، وصولا إلى فلسفة هاربرت سبنسر ، التي فندها برغسون جملة و تفصيلا.

إن الفلسفة الجمالية الاخاذة التي منيت بها البرغسونية من خلال ما خطته انامل هذا الفيلسوف الحيوي تجلت حقيقة الامر في براعة الكاتب الذي اقتدر على صب مكنونات افكاره في لغة سلسة ، مرنة يطرب لسماعها و يتلذذ بقراءتها أي انسان ، فما بالك بممتهن الفلسفة ، و يمكن ان نشير باقتضاب الى المنحى الفلسفي الذي سلكته اعمال برغسون الفلسفية من خلال اهم كتاباته على الاطلاق و نستهلها ب كتابه الاول ** بحث في

المعطيات المباشرة للشعور، و يحتوي على نظرية في المعرفة ، ليليه كتاب المادة و الذاكرة تنجلي من خلاله نظرته الفلسفية في علم النفس ، أما في كتابه التطور الخلاق فيعرض ميتافيزيقاه المبنية على المعتقد البيولوجي ، أما في مؤلفه الاخير منبعا الاخلاق و الدينفتنبجس من مكامنه اعتقاده في الاخلاق و فلسفته في الدين .

فهناك في الصيرورة أكثر مما هناك في الوجود .، و ليسهل علينا تكنه فحوى هاته الجملة البرغسونية ، علينا أن نلج و بعمق نظرية برغسون في الديمومة و الحدس .و نستهلها بنظرة هذا الاخير لتصور علم الفيزيقا ((الطبيعة)).

إذ يعتقد برغسون أن علم الفيزيقا يزعم أنه يعنى بدراسة الحركة و القوى ، و لكنه في حقيقة الأمر ليس كذلك مطلقا ، إذ هو عندما يدرس الحركة لا يدرسها في حد ذاتها – كديناميكية حية - ، و إنما يدرس تموضعها المتتابع ضمن حيز معين موقع ، أو بعبارة اخرى يدرس علم الفيزياء مواقع الأجسام و تتابع تموقعها في المكان .

كما أن الفيزيقا لا تدرس القوى في كنهها و جوهرها ، بل تتقصى نتائجها و تسعى لقياسها و دراسة الاسباب الفاعلة التي تحدثها ، و ليس القوى في حد ذاتها كديناميكية حيوية دافعة ، أما ما يزعمه الفيزيائيون في كونهم يدرسون الزمان و يقيسونه بصورة الية ميكانيكية ، فهو محض اهتراء ليس الا ، لأن الزمان الحقيقي غير قابل للتشيؤ و القياس فيزيقيا ، و الذي يزعمون انهم يقيسونه انما هو المكان .

أما الحقيقة الجوهرية التي يحيلنا اليها الفيلسوف برغسون فهي تلك القابعة في جوانية نفوسنا ، و التي لا يدان لنا باستجلائها إلا عن طريق جهد جهيد ، و شعور عميق ، و عمل مضني و مستمر و دائم و مرهق جدا ، لان تكنه هاته الحقيقة التي يدلنا عليها برغسون يمتاز بالفرادة و القوة ، و

من سمات هاته الحقيقة = الكيفية ، اللاتجانس ، التداخل مع صعوبة الفصل بين اجزاءها ، الحرية ، الارادة ، الشعور ، كما أنها لا تشغل حيزا من المكانية ، ولا قدرة لاي كان بتقديرها حسابيا ، فهي سيكولوجية باطنية ، أما الخاصية الاكثر تفرد و التي تجبلها فإنها الديمومة المحضة، انها تصير باستمرار ، فهي الدفعة والوثبة الحيوية و الصيرورة ، و ديمومة الجريان و الاستمرارية التي لا تعرف الانقطاع ابدا ، لهذا يفصل برغسون بين ميدانين من ميادين الحياة الانسانية =

1 - فهناك ميدان فيزيقي يعنى بالمادة المكانية ، و الذي يقابله العقل المتجه نحو العمل.

2- هناك ميدان الحياة الواعية الذي يسير وفقا للديمومة ، و يقابله الحدس.

و بذلك يمكن أن نتوصل إلى نتيجة مفادها أن الفلسفة الروحانية البرغسونية تعبير تعاطفي حميمي عميق ، على الشعور المتعاظم بالماهية الحقيقية للحياة البشرية في صعودها الملكوتي ، المتبلورة على قيم الإنفتاح و الصيرورة و التغير و النمو و النجاح ، هذه القيم ترتهن بمرجعية مطلقة ، جاعلة من الذات ، انجذاب نحو القيم الّإنسانية كمحبة و حميمية ، فكانت بحق فلسفة للطمأنينة إذ تتبوأ معها الإنسانية أعلى مراتب الوجود و تدعوا إلى المحبة و الإيمان ، و هكذا تتمظهر لنا البرغسونية كفلسفة للحضور و الفعالية الروحانية أعادت الإهتمام إلى الروح البشرية لتجعل من الإنسان مركزا للكونية و بوصفه انطلاقة ووثبة روحانية و أخلاقية و جمالية و دينية ، و هي عينها الخبرة الباطنية الإنسانية يحايث من خلالها الكائن البشري ايقاعه القلبي و قفزته الروحانية الواثبة نحو الإبداع و التطور الخلاق .

لذلك يكون المباشر هو القيمة العليا في الفلسفة البرغسونية المتبلورة في لب المعرفة الحدسانية ، لأن معايشة المباشر و الشعور به هو انتصار مهيب للحدس في تراتبية المعرفة .، و تعقيبا على ذلك **يقول الباحث مراد وهبة ((و المباشر هنا يعني أن ننفذ إلى الباطن حتى ندرك مافيه من جدة و عمق و أصالة ، و ننفذ إليه بروح الصداقة و التعاطف و المودة ، و تلك هي طريقة برغسون))**[29]

***باحث أكاديمي ، جامعة الجزائر2.**

المراجع :

[1] -هنري برغسون ، الطاقة الروحية ، ترجمة سامي الدروبي ، دار الفكر العربي ، ط1 ، 1963، ص07.

[2] -هنري برغسون ، التطور الخلاق ، ترجمة محمد محمود قاسم ، و نجيب بلدي ، وزارة الثقافة و الإرشاد ، الإدراة العامة للثقافة ، مصر ، ص10.

3-Henri Bergson , Matière et Mémoire , P.U.F , 93 édition , 1982 , p 166. -

4- Henri Bergson , Essai sur les donneés Immédiates de la conscience , P.U.F , 155 édition , 1982 ,p 125. -

5-Henri Gouhier , Bergson et le Christ des évangiles, les grandes religieuses , atheme Fayard ,7eme éd 1961,p18. -

6 -هنري برغسون ، الطاقة الروحية (مرجع سابق) ، ص 8.

7 -المصدر نفسه ، ص 09.

8 -هنري برغسون ، الطاقة الروحية ، مصدر سابق ، ص 36.

09 -المصدر نفسه ، ص 36.

10 -المصدر نفسه ، ص 71.

11-المصدر نفسه ، ص 71.

12 -هنري برغسون ، منبعا الأخلاق و الدين ، ترجمة سامي الدروبي و عبد الله عبد الدائم ، الهيئة العامة للتأليف و النشر ، 1971، د.ط ، ص89.

13 -إميل دوركهايم .. قواعد المنهج في علم الإجتماع ، ترجمة محمود قاسم و محمد بدوي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، مصر ، 1988، ص 52.

14 -ليفي برويل ، الأخلاق و علم العادات الأخلاقية ، ترجمة محمود قاسم ، شركة و طباعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده ، القاهرة ، مصر ، ص329.

15 -هنري برغسون ، منبعا الأخلاق و الدين ، مصدر سابق ، ص 239.

16 -المصدر نفسه ، ص 236.

17 -هنري برغسون ، منبعا الأخلاق و الدين ، ص 24

18-Henri Bergson ,La pensée et le mouvant , P.U.F , 91 édition , 1985 , p153. -

19-Henri Bergson,Le rire, P.U.F , 173 édition , 1962 , p104. -
20-Horold Hoffding , La philosophie de Bergson ,P.U.F , 1ere édition , 1916 , p 24. -
21 -نبيل صادق ، علاقة الفن بالفلسفة عند برغسون ، مجلة القاهرة ، العدد 67 ، 1987 ، ص 14.
22 -هنري برغسون ، منبعا الأخلاق و الدين ، مصدر سابق ، ص 62.
23 -هنري برغسون ، منبعا الاخلاق و الدين ، مصدر سابق ، ص 62.
24 -زكريا ابراهيم ، مشكلة الحرية ، مكتبة مصر ، د.ط، د.ت ، ص 23.
25-Joseph Combes , Valeur et liberté , P.U.F, 1ere édition , 1967 , p 44.-
26-Barth lemy , Madaule- Madeleine , Bergson adversaire de kant , P.U.F, 1966, p27.-
27-ايمانويل كانط ، نقد العقل المحض ، ترجمة موسى وهبة ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، لبنان ، د.ط ، د.ت ، ص 64.
28-هنري برغسون ، التطور الخلاق ، مصدر سابق ، ص 59.
29-مراد وهبة ، المذهب في فلسفة برغسون ، دار المعارف ، مصر ، د.ط، د.ت ،. ص 44.